

سورة النمل

مكية نزلت بعد الشعراء ، وآيها ثلاث وتسعون .

ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(١) إنها كالتمتعة لها إذ جاء فيها زيادة على ما تقدم من قصص الأنبياء قصص

داود وسليمن .

(٢) إن فيها تفصيلا وبسطا لبعض القصص السابقة كقصص لوط وموسى

عليهما السلام .

(٣) إن كليهما قد اشتمل على نعم القرآن وأنه منزل من عند الله .

(٤) آسلفية رسوله صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من أذى قومه وعنهم وإصرارهم

على الكفر به والإعراض عنه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى

لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ

هُمْ يُوقِنُونَ (٣) .

الإيضاح

(طَسَّ) تقدم القول في المراد من قوآخ السور ، وأن الأصح أنها حروف

مقطعة جاءت للتنبية نحو الأويا التي للنداء ، وينطق بأسمائها فيقال : (طا - سين) .

(تلك آيات القرآن وكتاب مبين) أى إن هذه الآيات التي أنزلتها إليك

أيها الرسول لآيات القرآن ، وآيات كتاب بين لمن تدبره وفكر فيه أنه من عند الله

أنزله إليك ، لم تتقوله أنت ولا أحد من خلقه ، إذ لا يستطيع ذلك مخلوق ولو تظاهر معه الجن والإنس .

والمراد بالكتاب المبين : القرآن ، وعطفه عليه كعطف إحدى الصفتين على الأخرى كما يقال هذا فعل السخى والجواد الكريم .

(هدى وبشرى المؤمنين) أى هى تزيد المؤمنين هدى على هدايم كما قال : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَأَدْتَهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يُسْتَبَشِرُونَ » وهى تبشرهم برحمة من الله بورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم .

ولما كان وصف الإيمان خفيا ذكر ما يلزمه من الأمور الظاهرة فقال :

(الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) أى إن المؤمنين حق الإيمان هم الذين يعملون الصالحات فيقيمون الصلاة المفروضة على أكمل وجوهها ويؤدون الزكاة التى تطهر أموالهم وأنفسهم من الأرجاس ، ويوقنون بالمعاد إلى ربهم وأن هناك يوما يحاسبون فيه على أعمالهم خيرها وشرها ، فيذلون أنفسهم فى طاعته ، رجاء ثوابه وخوف عقابه .

وليسوا كأولئك المكذبين به الذين لا يبالون . أحسنوا أم أساءوا ، أطاعوا أم عصوا ، لأنهم إن أحسنوا لا يرجون ثوابا وإن أساءوا لم يخافوا عقابا .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهِمْ يَعْْمَهُونَ (٤)
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ (٥) .

شرح المفردات

يعمّهون : أى يتحجرون ويترددون فى أودية الضلال ، الأخسررون : أى أشد

الناس خسرا لحرمانهم الثواب واستمرارهم فى العذاب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن المؤمنين يزيدهم القرآن هدى وبشرى ، إذ هم به يستمسكون ويؤدون ما شرع من الأحكام على أتم الوجوه - أردف هذا ببيان أن من لا يؤمن بالآخرة يركب رأسه ، ويتمادى في غيبه ، ويعرض عن القرآن أشد الإعراض ، ومن ثم تراه حائرا مترددا في ضلاله ، فهو في عذاب شديد في دنياه لتبليبه ، وقلقه واضطراب نفسه ، وفي الآخرة له أشد الخسران لما يلحقه من النكال والوبال والحرمات من الثواب والنعيم الذى يتمتع به المؤمنون .

الإيضاح

(إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون) أى إن الذين لا يصدقون بالآخرة وقيام الساعة و بالمعاد إلى الله بعد الموت ، وبالثواب والعقاب - حينئذ إليهم قبيح أعمالهم ومددنا لهم في غيهم ، فهم في ضلالهم حيارى تأهبون يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، لا يفكرون في عقبي أمرهم ولا ينظرون إلى ما يشول إليه سلوكهم . قال الزجاج : أى جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زيننا لهم ما هم فيه بأن جعلناهم مشغى بالطبع ، محبوبا إلى النفس .

(أولئك الذين لهم سوء العذاب) فى الدنيا يقتلهم وأسرهم حين قتال المؤمنين كما حدث يوم بدر .

(وهم فى الآخرة هم الأخسرون) أى وهم فى الآخرة أعظم خسرانا مما هم فيه فى الدنيا ، لأن عذابهم فيها مستمر لا ينقطع ، وعذابهم فى الدنيا ليس بدائم بل هو زائل لا بقاء له .

قصص موسى عليه السلام

وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَى
لَأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سَاءَ تِيمِكُمْ مِنْهَا بَحِيرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ
لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ
خَوَّلَهَا ، وَسُبْحَانَ أَهْلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ
يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى لَا تَخَفْ ، إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ
ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ
فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ،
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا
سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)

شرح المفردات

تلقى : أى تلقى وتعطى ، آنست : أى أبصرت إبصارا حصل لى به أنس ،
بحير : أى عن الطريق وحاله ، شهاب : أى بشعلة نار ، قبس : أى قطعة من النار
مقبوسة وماخوذة من أصلها ، تصطلون : أى تستدفنون بها . قال الشاعر :
النار فأكهة الشتاء ممن يرد أكل الفواكه شاتيا فليصطل
جان : أى حية صغيرة سريعة الحركة ، ولى مدبرا : أى التفت هاربا ، ولم يعقب :
أى لم يرجع على عقبه ولم يلتفت إلى ماوراءه من قواهم : عقب المقاتل إذا كره بعد الفرار ،

من غير سوء : أى من غير برص ولا نحوه من الآفات ، آيات : أى معجزات دالة على صدقك ، مبصرة : أى بيّنة واضحة ، جحدوا بها : أى كذبوا ، واستيقمتها أنفسهم أى علمت علما يقينيا أنها من عند الله ، وعلوا : أى ترفعا واستكبارا .

المعنى الجملى

بعد أن وصف عز اسمه القرآن بأنه هدى وبشرى للمؤمنين ، وأن من أعرض عنه كان له الخسران المبين - أردفه بذكر حال المنزل عليه وهو الرسول صلى الله عليه وسلم مخاطبا له .

الإيضاح

(وإناك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) أى وإناك أيها الرسول لتحفظ القرآن وتعلمه من عند حكيم بتدبير خلقه ، عليم بأخبارهم وما فيه الخير لهم ، بخبره هو الصدوق ، وحكمه هو العدل كما قال : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا » . ثم خطب صلى الله عليه وسلم وأمر بتلاوة بعض ما تلقاه من لده عز اسمه تقريرا لما قبله وتحقيقا له بقوله :

(إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون) أى واذكر أيها الرسول لقومك حين قول موسى لأهله وقد سار بهم فأضل الطريق في ليل دامس وظلام حالك ، فرأى نارا تأجج وتضطرب ، إني أبصرت نارا سأتيكم منها إما بخبر عن الطريق أو آتيكم بشعلة من النار تستدفنون بها ، وكان كما قال : فإنه رجع منها بخبر عظيم واقتبس نورا جليلا .

وقد كان هذا حين مسيره من مدين إلى مصر ولم يكن معه سوى امرأته ، وكانا يسيران ليلا فاشتبه عليهما الطريق والبرد شديد .

وفي مثل هذه الحالة يستبشر الناس بمشاهدة النار من بُعدٍ لما يرجى فيها من زوال الحيرة وأمن الطريق ومن الانتفاع بها للاصطلاء ، ومن ثم قال لها هذه المقالة .
 (فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين)
 أى فلما وصل إلى النار نودي بأن بورك من في مكان النار ومن حول مكانها ،
 ومكانها هي البقعة المباركة المذكورة في قوله : « نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ » ومن حولها من في ذلك الوادي وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات ومهبط الخيرات ، لسكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتاً .
 وقوله سبحان الله تنزيهه لنفسه عما لا يليق به في ذاته وحكمته وإبذان بأن مديبر ذلك الأمر هو رب العالمين .

أخرج عبد بن حميد وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي موسى الأشعري قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، ويرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات (أنوار) وجهه كل شيء أدركه بصره » ثم قرأ أبو عبيدة « أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين » .

وفي التوراة جاء الله من سيناء ، وأشرف من ساعير ، واستعلى من جبل فاران فحجيثه من سيناء بعثه موسى منها ، وإشرافه من ساعير بعثه المسيح منها ، واستعلوه من فاران بعثه محمداً صلى الله عليه وسلم (وفاران مكة) .

ولما تشوقت النفس إلى تحقق ما يراد بالتصريح قال تعالى تمهيداً لما أراد إظهاره على يد موسى من المعجزات الباهرة .

(يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) أى يا موسى إن الذى يخاطبك ويناجيك هو ربك الذى عز كل شيء وقهره ، وهو الحكيم فى أقواله وأفعاله .

ثم أرى موسى آية تدل على قدرته ليعلم ذلك علم شهوذا فقال :
 (وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جانّ ولىّ مدبرا ولم يعقب) أى وألقى عصاك ،
 فلما ألقاها انقلبت حية سريعة الحركة ، فلما رآها كذلك ولى هاربا بخوفها منها
 ولم يلتفت وراءه من شدة فرقه .

وحينئذ تأقت النفس إلى معرفة ما قيل إذ ذاك فقال :

(يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدى المرسلون) أى لا تخف مما ترى فإني لا يخاف
 عندى رسلى وأنبيائى الذين أختصهم وأصطفىهم بالنبوة .

(إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم) أى لكن من ظلم من
 سائر العباد ، فإنه يخاف إلا إذا تاب فبدل بتوبته حسنا بعد سوء فإني أغفر له
 وأحوذ ذنوبه وجميع آثارها كما فعل السحرة الذين آمنوا بموسى ، وفي هذا بشارة عظيمة
 لسائر البشر ، فإن من عمل ذنبا ثم ألقى عنه وتاب وأناب ، فإن الله يتوب عليه كما قال :
 « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » وقال : « وَمَن يَعْمَلْ
 سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا » .

ثم أراه جلت قدرته آية أخرى ذكرها بقوله :

(وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) أى أدخل يدك في جيب
 « مدخل الرأس منه المفتوح إلى الصدر » فميصك تخرج بيضاء بياضا عظما ، ولها
 شعاع كشعاع الشمس بلا آفة بها من برص أو غيره .

والآية الأولى كانت بتغيير ما في يده وقلبها من جماد إلى حيوان ، والثانية بتغيير
 يده نفسها وقلب أوصافها إلى أوصاف أخرى نورانية .

(في تسع آيات إلى فرعون وقومه) أى هاتان آيتان من تسع آيات أو يدك
 بهن وأجعلين برهانا لك إلى فرعون وقومه كما قال : « وَاقْتَدُوا مِنَّا مَوْسَى تِسْعَ
 آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » .

ثم علل إرساله إليهم بالخوارق بقوله :

(إنهم كانوا قوما فاسقين) أى لأنهم قوم خرجوا عما تقتضيه الفطرة. ويوجه العقل بادعاء فرعون الألوهية وتصديقهم له فى ذلك .

وبعدئذ ذكر ما حدث لهم حين أتاهم بالبراهين من ربه فقال :

(فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين) أى فلما جاءت فرعون وقومه أدلتنا الواضحة المنيرة الدالة على صدق الداعى - أنكروها وقالوا هذا سحر بين لأصح يدل على مهارة فاعله وحذق صانعه .

ثم بين أن هذا التكذيب إنما كان باللسان فحسب لبالقلب فقال :

(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) أى وكذبوا بها بالستهم وأنكروا داليتها على صدقه وأنه رسول من ربه ، لكنهم علموا فى قرارة نفوسهم أنها حق من عنده ، فخالفت ألتستهم قلوبهم ، ظلما للآيات إذ حطوها عن مرتبتها العالية وسموها سحرا ، ترفعا عن الإيمان بها كما قال فى آية أخرى : « فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ » .

والخلاصة - إنهم تكبروا عن أن يؤمنوا بها وهم يعلمون أنها من عند الله .

(فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أى فانظر أيها الرسول ما آل إليه أمر فرعون وقومه من الإغراق على الوجه الذى فيه العبرة للظالمين ، ومن إخراجهم من الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم .

وفى هذا تحذير للمكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم الجاحدين لما جاء به من عند ربه ، أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك ، لعلهم يقلعون عن عنادهم واستكبارهم حتى لا تنزل بهم القوارع ويأخذهم العذاب من حيث لا يشعرون .

قصص داود وسليمان عليهما السلام

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى

كثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) . وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ
 (١٦) وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧)
 حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّعْمِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَأْتِيهَا النَّعْمُ ادْخُلُوا
 مَسَاكِنَكُمْ ، لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨)
 فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
 أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي
 عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)

شرح المفردات

ورث سليمان داود : أى قام مقامه فى النبوة والملك ، منطق الطير : أى فهم ما يريده كل طائر إذا صوت ، حشر : أى جمع ، يوزعون : أى يحبس أولهم ليلحق آخرهم فيكونون مجتمعين لا يتخلف منهم أحد ، وادى النمل : واد بأرض الشام ، لا يحطمنكم : أى لا يكسرنكم ويهشمكم ، أوزعنى : أى يسرلى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص موسى صلى الله عليه وسلم تقريراً لما قبله ببيان أنه تلقاه من لدن حكيم عليم - أردفه بقصص داود وسليمان وذكر أنه أتى كلا منهما طائفة من علوم الدين والدنيا ، فعلم داود صنعة الدروع ولبوس الحرب ، وعلم سليمان منطق الطير ، ثم بين أن سليمان طلب من ربه أن يوفقه إلى شكر نعمه عليه وعلى والديه ، وأن يمكنه من العمل الصالح وأن يدخله جنات النعيم .

الإيضاح

(ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقال الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) أى ولقد أعطينا داود وسليمان ابنه عليهما السلام طائفة عظيمة من العلم ، فعلمنا داود صنعة البروع والنبوس الحرب ، وعلمنا سليمان منطق الطير والدواب وأسبيح الجبال ونحو ذلك مما لم نؤتّه أحداً من قبلهما ، فشكرا لله على ما أولاهما من مننه ، وقال الحمد لله الذى فضلنا بما آتانا من النبوة والكتاب وتسخير الشياطين والجن ، على كثير من المؤمنين من عباده الذين لم يؤتّهم مثل ما آتانا .

وفى الآية إيماء إلى فضل العلم وشرف أهله من حيث شكرا عليه وجعله أساس الفضل ولم يعتبر شيئا دونه مما أوتياه من الملك العظيم : « يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » وفيها تحريض للعلماء على أن يحمّدوا الله على ما آتاهم من فضله ، وأن يتواضعوا ويعتقدوا أن فى عبادة الله من يفضلهم فيه .

(وورث سليمان داود) أى قام مقامه فى النبوة والملك بعد موته ، وسخرت له الريح والشياطين .

قال قتادة فى الآية : ورث نبوته وملكه وعلمه ، وأعطى ما أعطى داود ، وزيد له تسخير الريح والشياطين ، وكان أعظم ملكا منه وأقضى منه وكان داود أشدّ تعبدا من سليمان ، شاكر النعم الله تعالى اه .

ثم ذكر بعض نعم الله عليه :

(وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير) أى وقال متحدثا بنعمة ربه ومنبها إلى ما شرفه به ليكون أجدر بالقول : يا أيها الناس إن ربى يسر لى فهم ما يريد الطائر إذا صوت ، فأعطانى قوة أستطيع بها أن أتبين مقاصده التى يومئ إليها فضلا منه ونعمة .

وقد اجتهد كثير من الباحثين فى العصر الحاضر فعرفوا كثيرا من لغات الطيور

أى تنوع أصواتها لأداء أغراضها المختلفة من حزن وفرح وحاجة إلى طعام وشراب واستغاثة من عدو ، إلى نحو ذلك من الأغراض القليلة التى جعلها الله للطير .

وفى هذا معجزة لكتابه الكريم لقوله فى آخر السورة : « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا » .

وإنك لتعجب إذ ترى اليوم أن كثيرا من الأمم تبحث فى لغات الطيور والحيوان والحشرات كالنمل والنحل وتبحث فى تنوع أصواتها لتتبع أغراضها ، فكأنه تعالى يقول : إنكم لا تعرفون لغات الطيور الآن وعلمتها سليمان ، وسيأتى يوم ينتشر فيه علم أحوال مخلوقاتى ويطلع الناس على عجائب صنعى فيها . (وأوتينا من كل شىء) مما نحتاج إليه فى تدبير الملك ويعيننا فى ديننا ودنيانا .

وهذا أسلوب يراد به الكثرة من أى شىء ، كما يقال فلان يقضده كل أحد ، ويعلم كل شىء ، وسيأتى فى مقال الهدهد عن بلقيس . « وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » . (إن هذا هو الفضل المبين) أى إن هذا الذى أوتيناه من الخيرات هو الفضل المبين الذى لا يخفى على أحد .

ثم ذكر بعض ما أوتيه سليمان بقوله :

(وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون) أى وجمع له عساكره من مختلف النواحي ليحارب بهم من لم يدخل فى طاعته ، فهو يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ، وقال ابن عباس لكل صنف وزعة ترد أولاهها على آخرها ثلاثا تتقدمها فى السير كما يصنع الملوك ، وقال الحسن : لا بد للناس من وازع : أى سلطان يكفلهم . وقال عثمان بن عفان : ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن .

(حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) أى حتى إذا أشرفوا على وادى النمل صاحت نملة بما فهم منه سليمان أنها تأمرهم بأن يدخلوا مساكنهم خوفا من تحطيم سليمان وجنوده لهم وهم لا يشعرون بذلك .

(فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) أى فضحك متعجبا من حذرها وتحذيرها والهداية التى غرسها الله فيها ، مسرورا بما خصه الله من فهم مقاصدها ، وقال رب ألهمنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت بها علىّ وعلى والدىّ ، وأن أعمل عملا تحبه وترضاه ، وتوفى مسلما وألحقنى بالصالحين من عبادك .

وخلاصة ذلك — كأنه قال : العلم غاية مطلبى وقد حصلت عليه ولم يبق بعد ذلك إلا أن أطالب التوفيق للشكر عليه بالعمل الصالح الذى ترضاه ، وأن أدخل فى عداد الصالحين من آبائى الأنبياء وغيرهم .

تذكرة وعبرة بالآية

قد دلّ بحث الباحثين فى معيشة النمل على ما لها من عجائب فى معيشتها وتدير شؤونها ، فإنها لتتخذ القرى فى باطن الأرض وتبنى بيوتها أروقة ودهايز وغرفات ذوات طبقات ، وتملؤها حبوبا وقوتا للشتاء ، وتحفى ذلك فى بيوت من مساكنها منعطفات إلى فوق ، حذرا من ماء المطر .

وفى هذه الآية تنبيه إلى هذا الإيقاظ العقول إلى ما أعطيته من الدقة وحسن النظم والسياسة ، فإن نداءها لمن تحت أمرها وجمعها لهم ليشير إلى كيفية سياستها وحكمتها وتديرها لأموورها ، وأنها تفعل ما يفعل الملوك وتدير وتسوس كما يسوس الحكام .

ولم يذكر الكتاب الكريم إلا ليكون أمثالا تضرب للعقلاء ، فيفهموا حال هذه الكائنات ، وكيف إن النمل أجمعت أمرها على الفرار خوفا من الهلاك كما تجتمع على طلب المنافع ، وإن أمة لاتصل فى تدبيرها إلى مثل ما يفعل هذا الحيوان الأعجم تكون أمة حقاء تأبها فى أودية الضلال ، وهى أدنى حالا من الحشرات والديدان : « وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)
 لَا عَذَابَ لَهُ عَذَابًا بِأَشَدِّدًا أَوْ لَذَّيْنَهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١)
 فَكُتِبَ عَلَيْهِ بَعِيدٌ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ
 يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ
 عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتَهَا وَقَوْمًا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ
 الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَا يَسْجُدُوا
 لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ
 وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) .

شرح المفردات

التفقد : طلب ما فقد ، سلطان مبين : أى بحجة واضحة ، والإحاطة بالشئ :
 علماً : علمه من جميع جهاته ، وسبأ : هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أبو قبيلة
 باليمن ، ونبأ : أى خبر عظيم ، والعرش : سرير الملك ، عن السبيل : عن سبيل الحق
 والصواب ، والخبء : هو الخبوء من كل شئ كالمنظر وغيره من شئون الغيب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى سابق الآيات أنه سخر لسليمان الجن والإنس والطير وجعلهم
 جنوداً له - ذكر هنا أنه احتاج إلى جندى من جنوده وهو الهدهد فبحث عنه فلم
 يجده فتوعده بالعذاب أو القتل إلا إذا أبدى له عذراً يبرئه ، فحضر بعد قليل وقص
 عليه خبر مملكة باليمن من أغنى الممالك وأقواها تحكمها امرأة هى بلقيس ملكة سبأ ،
 ووصف له ملها من جلال الملك وأهبتها وأنها وقومها يعبدون الشمس لا خالق الشمس .

العلم بكل شيء في السموات والأرض ، والعلم بما نخفي وما نعلن ، والعلم بالسر والنجوى ، وهو رب العرش العظيم .

الإيضاح

(وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) أى وطلب ما فقد من الطير على حسب ما تقتضيه العناية بأمر الملك من الاهتمام بالرعايا ولاسيما الجند فقال : الهدهد حاضر ومنع مانع من رؤيته كساتر ونحوه ؟ ثم لاح له أنه غائب فقال أم كان قد غاب قبل ذلك ولم أشعر به ؟ .

وخلاصة ذلك — أغاب عنى الهدهد الآن فلم أره حين تفقده ، أم كان قد غاب من قبل ولم أشعر بغيبته .

ثم توعده بالعذاب إذا لم يجد سببا يبرر به غيبته فقال :

(لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين) أى لأعذبه بحبسه مع ضده في قفص ، ومن ثم قيل : أضيق السجون معاشرة الأضداد ، أو بإبعاده من خدمتي ، أو بإلزامه بخدمة أفرانه أو نحو ذلك ، أو لأذبحنه ليعتبر به سواه ، أو ليأتيني بحجة تبين عذره .

والخلاصة — إنه ليعذبه بأحد الأمرين الأولين إن لم يكن الأمر الثالث .

ثم ذكر أنه جاء بعد قليل وبين أن غيابه كان لأمر هام لدى سليمان .

(فكنت غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين) أى فغاب مدة قصيرة بعد سؤال سليمان عنه ثم جاء فسأله : ما الذى أبطأ بك عنى ؟ فقال : اطلعت على ما لم تطلع أنت ولا جنودك عليه ، على سعة علمك واتساع أطراف مملكته .

وقد بدأ كلامه بهذا التمهيد ، لترغيبه في الإصغاء إلى العذر ، واستمالة قلبه إلى قبوله ، ولبيان خطر ما شغله ، وأنه أمر جليل الشأن يجب أن يتدبر فيه ، ليكون فيه

اخير له ولمملكته ، فهو ما كان إلا لكشف مملكة سبأ ومعرفة أحوالها ومعرفة من يسوس أمورها ، ويدبر شئونها .

قال صاحب الكشاف : أَلْهِمَ اللهُ الْهَدْهْدَ فَكَفَّحَ سَلِيمَانَ بِهَذَا الْكَلَامِ عَلَى مَا أُوتِيَ مِنْ فَضْلِ النَّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ وَاللِّجْمَةِ وَالْإِحَاطَةَ بِالْمَعْلُومَاتِ الْكَثِيرَةِ ، ابْتِلَاءً لَهُ فِي عِلْمِهِ ، وَتَنْمِيحًا عَلَى أَنْ فِي أَدْنَى خَلْقِهِ وَأَضْعَفِهِ مِنْ أَحَاطَ بِمَا لَمْ يَحِطْ بِهِ ، لِتَحْقِيقِ إِيلِيَّةِ نَفْسِهِ ، وَتَيْصَاغِرِ إِيلِيَّةِ عِلْمِهِ ، وَيَكُونَ لَطْفًا لَهُ فِي تَرْكِ الْإِعْجَابِ الَّذِي هُوَ فِتْنَةٌ الْعُلَمَاءِ ، وَأَعْظَمُ بِهَا فِتْنَةٌ أَه .

ثم فصل هذا النبأ وبينه بقوله :

(إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عظيم) بين في هذا الكلام شئونهم الدنيوية وذكر منها ثلاثة أمور :

(١) إن ملكتهم امرأة وهي بلقيس بنت شراحيل ، وكان أبوها من قبلها ملكا جليل القدر واسع الملك .

(٢) إنها أوتيت من الثراء وأهبة الملك وما يلزم ذلك من عتاد الحرب والسلاح وآلات القتال ، الشيء الكثير الذي لا يوجد مثله إلا في الممالك العظمى .

(٣) إن لها سريرا عظيما تجلس عليه ، مرصعا بالذهب وأنواع الآئى والجواهر في قصر كبير رفيع الشأن ، وفي هذا أكبر الأدلة على عظمة الملك وسعة رفقته وشأنه بين الممالك .

وبعد أن بين شئونهم الدنيوية ذكر معتقداتهم الدينية فقال :

(وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) أى وجدتها وقومها في ضلال مبين ، فهم يعبدون الشمس لآرب الشمس وخالق الكون المحيط بكل شيء علما ، وزين لهم الشيطان قبيح أعمالهم ، فظنوا حسنا ما ليس بالحسن ، وصدهم عن الطريق القويم الذى بعث به الأنبياء والرسل وهو إخلاص السجود والعبادة لله وحده .

(ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون) أى فصددهم عن السبيل حتى لا يمتدوا ويسجدوا لله الذى يظهر الخبوء فى السموات والأرض كالمطر والنبات والعادن الخبوءة فى الأرض ، ويعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال كما قال : « سَوَّأَ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » .

ولما بين أن كل العوالم مفتقرة إليه ومحتاجة إلى تدبيره ، ذكر ما هو كالدليل على ذلك ، فأبان أن أعظمها قدرا ، وهو العرش الذى هو مركز تدبير شؤون العالم هو الخالق له وهو محتاج إليه فقال :

(الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) أى هو الله الذى لاتصلح العبادة إلا له وهو رب العرش العظيم ، فكل عرش وإن عظم فهو دونه ، فأفردوه بالطاعة ولا تشرکوا به شيئا .

قَالَ سَدَنظَرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بَكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتِّوْنِي مُسْلِمِينَ (٣١) .

شرح المفردات

تول عنهم : أى نتج عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك ، فانظر : أى تأمل وفكر ، يرجعون : أى يرجع بعضهم إلى بعض من القول ويدور بينهم بشأنه ، والملأ : أشرف القوم وخاصة للملك ، ألا تعلموا على : أى ألا تتكبروا ولا تنقادوا للنفس والهوى ، مسلمين : أى منقادين خاضعين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الهدهد أبدى المعاذير لتبرئة نفسه - أردف ذلك بإجابة سليمان عن مقالة الهدهد ، ثم أمره بتبليغ كتاب منه إلى ملكة سبأ والتتجى جانباً ليستمع ما يدور من الحديث بينها وبين خاصتها بشأنه .

الإيضاح

(قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟) أى قال سنختبر مقالك ، وتعرف حقيقته بالامتحان ، أصادق أنت فيما تقول ، أم كاذب فيه لتتخلص من الوعيد ؟ .

وفى التعبير بقوله : كنت من الكاذبين ، دون أن يقول أم كذبت ، إيدان بأن تلتيق الأقوال المنمقة ، واختيار الأسلوب الذى يستهوى السامع إلى قبولها من غير أن يكون لها حقيقة تعبر عنها - لا يصدر إلا من مرن على الكذب وصار سجية له حتى لا يجد وسيلة للبعد عنه ، وهذا يفيد أنه كاذب على أتم وجه ، ومن كان كذلك لا يوثق به .

ثم شرع يفعل ما يختبره به فكتب له كتاباً موجزاً وأمره بتبليغه إلى ملكة سبأ فقال :

(أذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) أى اذهب بهذا الكتاب فألقه إليهم ، ثم تنح عنهم وكن قريباً منهم واستمع مراجعة الملكة أهل مملكتهما ، وما بعد ذلك من مراجعة بعضهم بعضاً وتقاشهم فيه .
ثم فصل ما دار بينهم بشأنه فقال :

(قالت يا أيها اللأى إنى أتقى إلى كتاب كريم) أى وبعد أن ذهب الهدهد بالكتاب ألقاه إلى الملكة ففضت خاتمه وقرأته وجمعت أشرف قومها ومستشاريها

وقالت تلك المقالة للمشورة وطابت أخذ الرأى فى ذلك الخطب الذى نزل بها كما هو دأب الدول الديمقراطية .

وفى الآية إيماء إلى أمور :

- (١) سرعة الهدهد فى إيصال الكتاب إليهم .
- (٢) إنه أوتى قوة المعرفة فاستطاع أن يفهم بالسمع من كلامهم .
- (٣) إنها ترجمت ذلك الكتاب فوراً بواسطة تراجمتها .
- (٤) إن من آداب رسل الملوك أن يتنحوا قليلاً عن المرسل إليهم بعد أداء الرسالة ، ليتشاور المرسل إليهم فيها .

ثم بينت مصدر الكتاب وما فيه نلخصتها وذوى الرأى فى مملكها فقالت .

(إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا علىّ وائتوني مسلمين)
يونص هذا الكتاب على وجازته يدل على أمور :

- (١) إنه مشتمل على إثبات الإله ووحديته وقدرته وكونه رحماناً رحيماً .
 - (٢) نهيبهم عن اتباع أهوائهم ، ووجوب اتباعهم للحق .
 - (٣) أمرهم بالحيء إليه منقادين خاضعين .
- وبهذا يكون الكتاب قد جمع كل ما لا بد منه فى الدين والدنيا .

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى
تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَأَنْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذَانًا وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ
فَمَنْظُورَةٌ بِهِمْ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) .

شرح المفردات

أفتونى : أى أشيروا علىّ بما عندكم من الرأى والتدبير فيما حدث ، فاطعة أمراء : أى باثة فيه منفذته ، تشهدون : أى تحضرونى ، والمراد بالقوة : القوة الحسية وكثرة الآلات ، والمراد بالبأس : النجدة والثبات فى الحرب .

المعنى الجملى

ذكر فيما سلف أن المهدد حينما ألقى الكتاب أحضرت بطانتها وأولى الرأى لديها وقرأت عليهم نصّ الكتاب ، وهنا بين أنها طلبت إليهم إبداء آرائهم فيما عرض عليهم من هذا الخطب المذمّم والحادث الجلل حتى ينجلى لهم صواب الرأى فيما تعمل ويعملون ، لأنها لا تريد أن تستبد بالأمر وحدها ، فقلّبوا وجوه الرأى واشتد الحوار بينهم وكانت خاتمة المطاف أن قالوا : الرأى لدينا القتال ، فإننا قوم أولو بأس ونجدة ، والأمر مفوّض إليك فافعل ما بدا لك ، وأن قالت : إني أرى أن عاقبة الحرب الدمار والخراب وصيرورة العزيز ذليلا ، وإني أرى أن نهادته ونرسل إليه بهدية ثم ننظر ماذا يكون رده ، علّه يقبل ذلك منا ويكف عنا أو يضرب علينا خراجا نحمله إليه كل عام ونلتزم ذلك له ، وبذا يترك قتالنا وحر بنا .

الإيضاح

(قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت فاطعة أمرا حتى تشهدون) أى قالت بلقيس لأشراف قومها : أيها الملأ أشيروا علىّ فى أمر هذا الكتاب الذى ألقى إلىّ ، فإنى لا أفضى فيه برأى حتى تشهدونى فأشاوركم فيه .

وفى قولها هذا دلالة على إجلالهم وتكريمهم ليحضوها النصح ، ويشيروا عليها بالصواب ، ولتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم ، وإمضاءهم على الطاعة لها ، علما منها أنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ومبادئهم دونها لم يكن

لها طاقة بمقاومة عدوها ، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجِدِّهم كان ذلك عوناً لعدوهم عليهم ، وإن لم تختبر ما عندهم وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم ، وربما كان في استبدادها برأيها وهن في طاعتها ، وتعمية في تقدير أمرهم ، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريد من قوة شوكتهم وشدة مدافعتهم ، ألا ترى إلى قولهم في جوابهم : (نحن أولو قوة وأولو بأس شديد) على ما لها من عقل راجح وأدب جم في التخاطب .

وعلى هذا النهج سار الإسلام ، فقد قال سبحانه لنبيه : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » . وقد مدح سبحانه صحابة رسوله بقوله : « وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » . فأجابوا عن مقالها .

(قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) أي قال الملائكة قوما حين شاورتهم في أمرها وأمر سليمان : نحن ذوو بأس ونجدة في القتال ، إلى ما لنا من أفر العدة وعظيم العتاد وكثير الكراع والسلاح ، وإن أمر القتال والسلم مفوض إليك ، فانظري وقابلي الرأي على وجوهه ، ثم مرينا نأمر بذلك .

ولما أحست منهم الميل إلى القتال شرعت تبين لهم وجه الصواب ، وأنهم في غفلة عن قدرة سليمان وعظيم شأنه ، إذ من سخر له الطير على الوجه الذي يريد . ليس من السهل مجالدته والتغلب عليه .

(قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) أي قالت لهم حين عرضوا عليها أنفسهم لقتال سليمان : إن الملوك إذا دخلوا قرية فاتحين أفسدوها بتخريب عمارتها وإتلاف أموالها ، وأذلوا أهلها بالأسر والإجلاء عن موطنهم أو قتلهم ثقيلًا ، لئيم لهم الملك والغلبة ، وتتقرر لهم في النفوس المهابة ، وهكذا يفعلون معنا .

وفي هذا تحذير شديد لقومها من مسير سليمان إليهم ، ودخوله بلادهم .

وبعد أن أبانت ما في الحرب والمجالدة من الخطر أتبعته بما عزمت عليه من المسألة بقولها :

(وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ؟) أى وإنى سأرسل إليه هدية من نفائس الأموال لأتعرّف حاله وأختبر أمره ، أنبى هو أم ملك ؟ فإن كان نبيا لم يقبلها ولم يرض منا إلا أن نتبعه على دينه ، وإن كان ملكا قبل الهدية وانصرف إلى حين ، فإن الهدايا مما تورث المودة ، وتذهب العداوة ، وفي الحديث : « تصالحوا يذهب الغل ، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء » ولقد أحسن من قال :

هدايا الناس بعضهم لبعض تولد في قلوبهم الوصلا
وتزرع في الضمير هوى ووُدًّا وتكسبهم إذا حضروا جمالا

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ؟ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِبَهْدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّاقِبِلٍ لَهُمْ بِهَا وَلَنُنخِّرَنَّ لَهُمْ مِنْهَا آدِلَةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)

شرح المفردات

لاقبل لهم بها : أى لاطاقة لهم بمقاومتها ، صاغرون : أى مهانون محقرون .

الإيضاح

لما وصلت الهدية مع الرسول إلى سليمان وكانت من ذهب وجواهر ولائى وغيرها مما تقدمه الملوك العظام ، قال سليمان للرسول : أتصانعوننى بالمال لأترككم على شرككم وكفركم ؟ لن يكون ذلك ، إن الذى أعطانيه الله من النبوة والملك الواسع الأرجاء والمال الوفير - خير مما أتم فيه ، فلا حاجة لى بهديتكم ، وليس رأبى نبي المال كما ترون ، فأنتم تفرحون به دونى ، فارجع بما جئت به إلى من أرسلتك ،

ولمأتينكم بجنود لا طاقة لكم بدفعها ولا الانتصار عليها ، ولنخرجكم من أرضكم أدلة
 مأسورين مستعبدين ، إن لم تأتوني مستسلمين متقادين .

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَيُّكُمْ يَأْتِنِي بِعَرِّشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي
 مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ
 مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ
 أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ
 هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا
 يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) .

شرح المفردات

العرش : سرير الملك ، مسلمين أى خاضعين متقادين ، العفريت من البشر :
 الخبيث الماكر الذى يعفر أقرانه ، ومن الشياطين : المارد ، مقامك : أى مجلسك الذى
 تجلس فيه للحكم ، قوى : أى قادر على حمله لا أعجز عنه ، أمين : أى على ما فيه من
 الآلى وجواهر وغيرها ، والكتاب : هو علم الوحي والشرائع والذى عنده هو سليمان
 عليه السلام كما اختاره الرازى وقال إنه أقرب الآراء ، يرتد : أى يرجع ، والطرف :
 تحريك الأجفان والمراد بذلك السرعة العظيمة ، مستقرا : أى ساكنا قارئا على حاله
 التى كان عليها ، الفضل : التفضل والإحسان ، ليبلونى : أى ليعاملنى معاملة المختبر ،
 أم أكفر أى أقصر فى أداء واجب الشكر ، كافر أى لم يشكر .

المعنى الجملى

استبان مما سلف أن سليمان رفض قبول الهدايا وتهدد الرسول بأن قومه
 ومالكتهم إن لم يأتوا إليه طائعين خاضعين فسيوجه إليهم جيشا جرارا ينكل بهم

أشد التنكيل ، يقتل من يقتل ويأتي بالباقين أسارى وهم صاغرون ، ويخلمهم جميعا عن الديار والأوطان ، ويأخذ أموالهم غنائم له - وهنا ذكر أنهم خافوا تهديده واستجابوا لدعوته ، فتوجهت الملكة وأشرف قومها إليه ، لكن سليمان رأى حين قربت من الوصول إليه أن يحضر سرير ملكها قبل مقدمها ، ليكون في ذلك دلالة على قدرة الله وإثبات النبوة وتظاھر عليها الأدلة من كل أوب ، فسأل أعوانه : أيكم يستطيع أن يحضره قبل وصولها إلينا ، فأجابه عفريت من الجن بأن في استطاعته أن يحضره قبل قيامه من مجلس الحكم والقضاء ، فقال هو : بل أنا آتيكم به كليج البصر ، وقد كان كما قال : فرأى العرش حاضرا أمامه فشكر ربه على ما آتاه من النعم العظام الذي لا يستطيع إيفاء حقها من الشكر .

وعلينا أن نؤمن بما جاء في الكتاب الكريم على أنه معجزة سليمان ، وإن كانت لا تنطبق على السنن العادية التي وضعها ربنا خلقه ، فعمل البشر إلى الآن لم يصل إلى تحقيق ذلك عمليا مع تقدم سبل الانتقال ، فالطائرات على سرعتها التي أدهشت العقول لا تستطيع أن تسافر من جنوب اليمن إلى أطراف الشام في مثل تلك اللحظات الوجيزة .

الإيضاح

لما رجعت الرسل إلى بلقيس وأخبرتها بما قال سليمان قالت : قد والله عرفت ما هذا بملك وما لنا به طاقة ، وما نضع بكابرتي شيئا ، وبعثت إليه إنى قادمة إليك بأشرف قومي ، لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك ، ثم شخصت إليه ، فجعل يبعث الجن يأتونه بأخبارها ويعلمونه غاية سيرها كل يوم حتى إذا دنت منه جمع جنده من الجن والإنس وتكلم فيهم .

(قال يأيها الملأ أيكم يأتيني بعرضها قبل أن يأتوني مسلمين) أى قال أيها الأعوان من منكم في مسكنته أن يأتيني بسرير ملكها قبل قدومها علينا ، لنطلعها

على بعض ما أنعم الله به علينا من العجائب النبوية والآيات الإلهية ، التعرف صدق نبوتنا ، ولتعلم أن ملكها في جانب عجائب الله وبدائع قدرته يسير ، وحينئذ تقدم إليه بعض جنده بمقترحات .

(قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه أقوى (أمين) أى قال شيطان قوى أنا أحضره إليك قبل أن تقوم من مجلس قضائك وكان إلى منتصف النهار ، ثم زاد الأمر توكيدا فقال : وإني على الإتيان به لقادر لا أعجز عنه ، وإني لأمين لا أمسه بسوء ولا أقتطع منه شيئا لنفسى - حينئذ .

(قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) أى قال سليمان للعفريت متحدثا بنعمة الله وعظيم فضله عليه : أنا أفعل ما لا تستطيع أنت ، أنا أحضره فى أقصر ما يكون مدة ، أنا أحضره قبل ارتداد طرفك إليك ، وقد كان كما قال :

(فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر؟) أى فلما رآه سليمان ساكنا ثابتا على حاله لم يتبدل منه شيء ولم يتغير وضعه الذى كان عليه ، قال هذا تفضل من الله ومنة ليختبرنى : أشكر بأن أراه فضلا منه بلا قوة منى أم أجدد فلا أشكر بل أنسب العمل إلى نفسى .

وإن النعم الجسمية والروحية والعقلية كلها مواهب يمتحن الله بها عباده ، فمن ضل بها هوى ، ومن شكرها ارتقى ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غنى كريم) أى ومن شكر ففائدة الشكر إليه ، لأنه يجلب دوام النعمة ، ومن جحد ولم يشكر فإن الله غنى عن العباد وعبادتهم ، كريم بالإنعام عليهم وإن لم يعيدوه ، كما قال : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا » وقال : « وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا وَأَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ كَفِيُّ حَمِيدٌ » وروى مسلم قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه : « يا عبادى لو أن أولكم وأحركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد

ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنم كانوا على أفجر
 قلب رجل منهم ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها
 لكم ، ثم أوفيكم بإها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ
 إلا نفسه .

قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ
 لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا
 الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ
 حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ
 قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ (٤٤) .

شرح المفردات

نكروا لها عرشها : أى غيروا هيئته وشكله بحيث لا يعرف بسهولة ، مسامين :
 أى خاضعين منقادين ، صدها : أى منعها ، والصرح : القصر وكل بناء عال ، واللجة
 الماء الكثير ، ممرد : أى ذو سطح أملس ومنه الأمرد للشاب الذى لا شعر فى وجهه ،
 القوارير : الزجاج واحدها فارورة ، أسلمت : أى خضعت .

المعنى الجملى

عاندنا فيما سلف أن بلفيس تجهزت للسفر مقبلة إلى سليمان ، وأن الجن كانت
 تترسم خطاها من يوم إلى آخر حتى إذا دنت منه سأل سليمان جنده : من يستطيع

إحضار عرشها؟ فقال عفريت من الجن : أنا أفعل ذلك قبل أن تقوم من مجلس القضاء ، فقال سليمان : بل أستطيع أن أحضره في لمح البصر وكان كما قال : فلما رآه أمامه شكر ربه على جزييل نعمه .

وهنا ذكر أمر سليمان بتغيير معالم العرش وتبديل أوضاعه ، ثم سؤالها عنه ليختبر مقدار عقلها ، ولتعلم صدق سليمان في دعواه النبوة ، وتبظاهر لديها الأدلة على قدرة المولى سبحانه .

وقد كان مما أعده لنزولها قصر عظيم مبنى من الزجاج الشفاف ، فرشت أرضه بالزجاج أيضا ، وفي أسفل ماء جار فيه صنوف السمك ، فلما دخلت في بهوه خالته لجة من الماء فكشفت عن ساقها لتخوض فيه ، فأنبأها سليمان بأن هذا زجاج يجرى تحته الماء ، حينئذ أيقنت بأن دين سليمان هو الحق وأنها قد ظلمت نفسها بكفرها بالله ربها خالق السموات والأرض وصاحته تقول : أسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

الإيضاح

(قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون) أى قال سليمان لجنده لما جاء عرش بلقيس : غيروا لها معالم السرير وبدلوا أوضاعه ، لنختبر حالها إذا نظرت إليه وترى : أتهتدى إليه وتعلم أنه هو أم لا تستبين لها حقيقة حاله ؟ ثم أشار إلى سرعة مجيئها وخضوعها بقوله :

(فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو) أى فحين قدمت واطلعت على عرشها سئلت عنه ، أعرشك مثل هذا ؟ أجابت بما دل على رجاحة عقلها إذ قالت كأنه هو ، ولم تجزم بأنه هو ، فر بما كان مثله .

قال مجاهد : جعلت تعرف وتنكر ، وتعجب من حضوره عند سليمان فقالت :

كأنه هو : وقال مقاتل : عرفته ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها ، ولو قيل لها : أهذا عرشك لقلت نعم .

ولما ظنت أن سليمان أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار المعجزة لها قالت :

(وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) أى وأوتينا العلم بكمال قدرة الله وصدق نبوتك من قبل هذه المعجزة بما شاهدناه من أمر الهدد ، وبما سمعناه من رسلنا إليك من الآيات الدالة على ذلك ، وكنا منقادين لك من ذلك الحين ، فلا حاجة بي إلى إظهار معجزات أخرى .

ثم ذكر سبحانه ما منعها عن إظهار ما ادعت من الإسلام إلى ذلك الحين فقال :
(وصدعنا ما كانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين) أى ومنعها ما كانت تعبد من دون الله وهو الشمس عن إظهار الإسلام والاعتراف بوحدايته تعالى ، من قبل أنها من قوم كانوا يعبدونها ونشأت بين أظهرهم ولم تكن قادرة على إظهار إسلامها إلى أن مثلت بين يدي سليمان فاستطاعت أن تنطق بما كانت تعتقده في قرارة نفسها ويحول في خاطرها .

روى أن سليمان أمر قبل مقدمها ببناء قصر عظيم جعل صحنه من زجاج أبيض شفاف يجرى من تحته الماء وأتى فيه دواب البحر من سمك وغيره ، فلما قدمت إليه استقبلها فيه وجلس في صدره ، فحين أرادت الوصول إليه حسبته ماء فكشفت عن ساقها لئلا تبتل أذيالها كما هي عادة من يخوض الماء ، فقال لها سليمان : إن ماتظنينه ماء ليس بالماء بل هو صرح قد صنع من الزجاج فسترت ساقها وعجبت من ذلك ، وعلمت أن هذا ملك أعز من ملكها وسليمان أعز من سلطانها ، ودعاها سليمان إلى عبادة الله وعابها على عبادة الشمس دون الله ، فأجابته إلى ما طلب وقالت : رب إني ظلمت نفسي بالثبات على ما كنت عليه من الكفر وأسلمت مع سليمان لله رب كل شيء ، وأخلصت له العبادة وإلى ما تقدم أشار سبحانه بقوله :

(قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح
مرد من قوارير ، قالت : رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله
رب العالمين) .

أخرج البخارى فى تاريخه والعقبلى عن أبى موسى الأشعري قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « أول من صنعت له الحمامات سليمان » .

قصص صالح

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ
يَخْتَصِمُونَ (٤٥) نَالِ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا
تَسْتَفْتِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالِ
طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ نِسْمَةٌ
رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ
وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩)
وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْتَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ يَوْمَئِذٍ خُلُوبُهُمْ
بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا
يَتَّقُونَ (٥٣)

شرح المفردات

فريقان : أى طائفتان طائفة مؤمنة وأخرى كافرة ، يختصمون : أى يجادل
بعضهم بعضاً ويحاججه ، السيئة : العقوبة التى تسوء صاحبها ، الحسنه : الثوبة ،

لولا: أى هلاً وهى كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها ، اطيرنا : أى تطايرنا
 ونشاء مننا بك ، طائرکم : أى ما يصيبكم من الخير والشر ، وسمى طائراً لأنه لاشيء
 أسرع من نزول القضاء المحتوم ، تفتنون : أى تختبرون بتعاقب السراء والضراء ،
 والمراد بالمدينة : الحجر ، والرهنط والنفر : من الثلاثة إلى التسعة ، تقاسموا: أى اختلفوا ،
 والبيات : مباحنة العدو ومفاجأته بالإيقاع به ليلاً ، وليه : أى من له حق القضاء
 من ذوى قرابته إذا قتل ، والمهلك : الهلاك ، والمسكر : التدبير الخفى لعمل الشر ،
 والتدمير : الإهلاك ، خاوية : أى خالية ، لآية : أى لعبرة وموعظة .

الإيضاح

(وقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون)
 أى ولقد بعثنا إلى ثمود أخاهم صالحاً وقلنا لهم : اعبدوا الله وحده لا شريك له ،
 ولا تجعلوا معه إلهاً غيره .

وحيث دعاهم إلى ذلك افترقوا فرقتين :

(١) فريق صدق صالحاً وآمن بما جاء به من عنده .

(٢) فريق كذبه وكفر بما جاء به .

وصاروا يتجادلان ويتخاصمان ، وكل منهما يقول أنا على الحق وخصمى

على باطل .

ثم ذكر أن صالحاً استعطف الكاذبين وكانوا أكثر عدداً وأشد عتواً وعناداً
 حتى قالوا : « يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » .

(قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟) أى لم تستعجلون بالعقوبة التى
 يسوءكم نزولها بكم قبل حصول الخيرات التى بشرتكم بها فى الدنيا والآخرة إن أنتم
 آمنتم بى .

ثم نصحهم وطلب إليهم أن يستغفروا ربهم لعاهم يرجون فقال :

(لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون) أي هلا تتوبون إلى الله من كفركم ،
فيغفر لكم عظيم جرمكم ويصفح عن عقوبتكم على ما أتيتم به من الخطايا ، لعلكم
ترحمون بقبولها ، إذ قد جرت سنة الله ألا تقبل التوبة بعد نزول العقوبة .

ولما قال لهم صالح ما قال وأبان لهم سبيل الرشاد وأجابوه بفظاظة وغلظة .

(قالوا اظيرنا بك وبمن معك) أي قالوا : إنا نشاء منا بك وبمن آمن معك ،
إذ زجرنا الطير فعملنا أن سيصيننا بك وبهم من المكارة ما لا يقبل لنا به ، ولم نزل
في اختلاف وافتراق منذ اخترعتم دينكم وأصابنا القحط والجذب بسببكم .

وسمى الشاؤم تطيرا من قبيل أنه كان من دأبهم أنهم إذا خرجوا مسافرين
فبروا بطائر زجره : أي رموه بحجر ونحوه ، فإن مر سائحا بأن مر من ميامن الشخص
إلى مياسره تيمنا به ، وإن مر بارحا بأن مر من المياسر إلى الميامن تشاءموا منه .

فأجابهم صالح عليه السلام :

(قال طائرکم عند الله) أي قال إن ما يصيبكم من خير أو شر مكتوب عند الله
وهو بقضائه وقدره ، وليس شيء منه بيد غيره ، فهو إن شاء رزقكم وإن شاء حرّمكم .
وسمى ذلك القضاء طائرا السرعة نزوله بالإنسان ، فلا شيء أسرع منه نزولا .

ثم أبان لهم سبب نزول ما ينزل من الشر بقوله :

(بل أنتم قوم تعفتون) أي بل أنتم قوم يختبركم ربكم إذ أرسلني إليكم :
أنطيعونه ففعلوا بما أمركم به فيجزئكم الجزيل من ثوابه ، أم تعصونه ففعلوا بخلافه
فيحل بكم عقابه .

ثم ذكر أن قريته كانت كثيرة الفساد فقال :

(وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون) أي وكان
في مدينة صالح وهي الحجر تسعة أنفس يعيشون في الأرض فسادا لا يعملون
فيها صلاحا .

ثم بين بعض ما عملوا من الفساد :

(قالوا تقاسموا بالله لنبيتهن وأهلهن ثم لتقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون) أى قال بعضهم لبعض فى أثناء المشاورة فى أمر صالح عليه السلام بمد أن عقروا الناقة وتوعدهم بقوله : « تَمْتَعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » احلفوا لنباغثته وأهله بالهلاك ليلا ثم لتقولن لأولياءه الدم ، ما حضرنا هلاكهم ، ولا ندرى من قتله ولا قتل أهله . ونحلف إنا لصادقون فى قولنا : « تَمْتَعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » .

وإذا كانوا لم يشهدوا هلاكهم فهم لم يقتلوه بالأولى ، وأيضا فهم إذا لم يقتلوا الأتباع فأخروهم ألا يقتلوا صالحا بالليل .

قال الزجاج . كان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحا وأهله ثم ينكروا عند أوليائه أنهم ما فعلوا ذلك ولا رأوه ، وكان هذا مكرامتهم ، ومن ثم قال سبحانه محذرا لهم ولأمثالهم .

(ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون) أى وغدر هؤلاء النسمه الرهط الذين يفسدون فى الأرض بصالح ، إذ صاروا إليه ليلا ليقتلوه وأهله وهو لا يشعر بذلك ، فأخذناهم بمقربتنا إياهم وتعجيلنا العذاب لهم من حيث لا يشعرون بمكر الله بهم .

ثم بين ما ترتب على ما باشروه من المكركر بقوله : « تَمْتَعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » .

(فانظر كيف كان عاقبة مكركم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين) أى ففكر كيف آل أمرهم وكيف كانت عاقبة مكركم ، فقد أهلكتناهم وتوهم الذين لم يؤمنوا على وجه يقتضى النظر ويستترعى الاعتبار ويكون عظة لمن غدر كعددهم فى جميع الأزمان .

روى أنه كان لصالح فى الحجر مسجد فى شعب يصلى فيه ، فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث ، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث ، فذهبوا إلى الشعب ليقتلوه فوقعت عليهم صخرة من جبالهم طيقت عليهم الشعب فهلكوا وهلك الباقون فى أمماتهم بالصيحة ، ونجى الله صالحا ومن آمن معه .

ثم أكد ما تقدم وقرره بقوله : « تَمْتَعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » .

(فتلك بيوتهم خاوية بما ظفروا) أى فتلك مساكنهم أصبحت خالية منهم ، إذ قد أهلكهم الله بظلمهم أنفسهم بشركهم به وتكذيبهم برسوله .
 (إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون) أى إن فى فعلنا بشهود ما قصصناه عليك لعظة لمن كان من أولى المعرفة والعلم ، فيعلم ارتباط الأسباب بمسبباتها ، والنتائج بمقدماتها ، على حسب السنن التى وضعها الله فى الكون .
 وبعد أن ذكر من هلكوا أودعهم عن أنجاهم فقال :
 (وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) أى وأنجينا من نعمتنا وعذابنا الذى أحلناه بشهود - رسولنا صالحا ومن آمن به لأنهم كانوا يتقون سخط الله ويخافون شديد عقابه ، بتصديةهم رسوله الذى أرسله إليهم .
 وفى هذا إيماء إلى أن الله ينجى محمدا وأتباعه عند حلول العذاب بمشركى قريش حين يخرج من بين ظهرانيهم كما أحل بقوم صالح ما أحل حين خرج هو والمؤمنون إلى أطراف الشام ونزل رثة وفلسطين .

قصص لوط

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤)
 أَلَيْسَ لَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
 تَجَاهِلُونَ (٥٥)

الإيضاح

(ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ؟) أى واذكر لقومك حديث لوط لقومه إذ قال لهم منذرا ومحذرا : إنكم لتفعلون فاحشة لم يسبقكم بها أحد من بنى آدم ، مع علمكم بقبوحها لدى العقول والشرائع (واقتراف القبيح ممن يعلم قبوحه أشنع) .

ثم بين ما يأتون من الفاحشة بطريق التصريح بعد الإيهام ليكون أوقع في النفس فقال :

(أنتم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ؟ بل أنتم قوم تجهلون) أى ينبغي أن تأتوا الرجال وتقومكم الشهوة إلى ذلك وتذروا النساء اللاتي فيهن محاسن الجمال وفيهن مباحج الرجال ، إنكم تقوم جاهلون سفهاء حمقى ماجنون .
 ونحو الآية قوله : « أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ؟ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ » .

وقد أشار سبحانه إلى قبيح فعلهم وعظيم شناعته من وجوه :

(١) قوله : (الرجال) وفيه الإشارة إلى أن الحيوان الأعمى لا يرضى بمثل هذا .

(٢) قوله : (من دون النساء) وفي ذلك إيحاء إلى أن تركهن واستبدال الرجال

بهن خطأ شنيع وفعل قبيح .

(٣) قوله : (بل أنتم قوم تجهلون) وفي هذا إيحاء إلى أنهم يفعلون فعل الجهلاء

الذين لا عقول لهم ، ولا يدرون عظيم قبح ما يفعلون .

هذا آخر ما سطرناه تفسيراً لهذا الجزء من كلام ربنا العليم القدير ، فله الحمد والمنة .

وكان ذلك بمدينة حلوان من أرباض القاهرة في الثالث والعشرين من شهر

ربيع الأول من سنة أربع وستين وثلثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية ، والحمد لله

الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .